

الفن وعلاقته بالتنمية البشرية

د. بلبشير عبد الرزاق

كلية الآداب واللغات

جامعة تلمسان

مما لا يبعث على الشك إذا قلنا يجب أن نبحث عن الباعث والغرض من تدريس الفنون على المستوى الفردي والجماعي، ذلك الغرض الذي لا بد أن يفكر فيه كل واحد منا قبل الدخول إلى حجرة التدريس أو الشروع في إلقاء الدروس الفنية، فالبحث عن أغراض تدريس الفنون قد يذهب بنا إلى أبعد الحدود في معاناة الحقائق الممكنة، إلا أن الأغراض أوسع من الحقائق، فتحقيق الغرض أو المثل الأعلى الذي يضعه رجل التربية نصب عينيه يساعد في الاستمرار والمثابرة على العمل وإتباع الطرق للوصول إلى غاية ذلك الهدف.

يرى بعض علماء التربية الحديثة أن الغرض من التربية والتعليم المدرسي هو إعداد الأطفال إعدادا يمكنهم من كسب رزقهم في المستقبل ويساعدهم في تحسين العمل الذي يتخذونه مهنة لهم بعد حياتهم المدرسية، فبالرجوع إلى تاريخ الأمم المختلفة نجد أن الغرض من التربية يختلف باختلاف الأمم ومركزها في العالم ونظرتها نحو الفرد كما تختلف آراء العلماء وفلاسفة التربية، فمن أغراض التربية الأساسية هي كسب العيش.

إن التربية الفضلى التي يجب أن نسعى لتحقيقها في هذا العصر هي التربية التي تعد الفرد لكي يعيش ويحيا بحياة كاملة، بحث يكون قوي الجسم كامل الخلق، صلب الفكر، يعرف كيف يتعاون مع غيره ويقدر ما بالطبيعة من جمال ويدير شؤونه بنفسه ويقوم بواجبه نحو أمته ووطنه وينتفع بما وهبه الله من مواهب، ويستخدم كل قواه في سبيل منفعة ومنفعة غيره.

ترمي التربية الحديثة إلى نقل التربية من البالغ إلى الطفل، فالطفل إذن هو مركز الجاذبية، حيث أصبح الطفل محور البداية، وهو المركز، وهو الغاية من عملية التربية، ونستطيع أن نقول بأن حركة التربية الحديثة ونظمها وطرقها البيداغوجية تنجس إلى تحقيق غايتين هما: الغاية الأولى وهي مراعاة طبيعة الطفل، والغاية الثانية هي مراعاة طبيعة المجتمع، فالغاية الأولى سيكولوجية والغاية الثانية إجتماعية، والتربية الحديثة تحاول التوفيق بين الطرفين: الطفل والمجتمع، فعملية التوافق تهدف إلى بناء الشخصية الفاعلة، كالإعتماد على النفس واحترام الآخرين بفضل التعاون والتضامن والإلتزام بقواعد وقوانين المحيط والجماعة، فالخدمة الإجتماعية كلها تنهض على أساس الوعي بالإنسان ككل، ولا يمكن الفصل بين العمليات البدنية والعاطفية والعقلية، التي تجري بداخله، إن الخدمة الإجتماعية تؤدي دور المعارف في العلاقات الإنسانية¹

التربية بأبسط أشكالها، إنما تعمل على تمكين الطفل من أن ينمو النمو الصحيح، فهي تهيئ المجال لنموه، فالتربية ليست سوى إشراف الكبار على نمو الطفل، وتوجيهه الإتجاه الصحيح، وتهيئ له مجال الكسب وخاصة كسب الخبرة التي تؤدي إلى تعديل سلوكه وتصرفاته الفطرية تعديلا فيه مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع الذي يعيش فيه.

ويتضح أن التربية ضرورية للمجتمع في جملته، كما هي ضرورية للفرد ذاته حتى يستطيع ذلك المجتمع أن يحتفظ بسلامة كيانه واستمرار ثقافته وإطراد رقيه في السبيل أو الطريق التي توصله إلى إدراك المثل العليا في الحياة.

تلعب المدرسة كمؤسسة إجتماعية بجانب الأسرة عدة أدوار لها وزنها التاريخي، وتتميز بوظائفها عن باقي المؤسسات الأخرى لأنها تلامس مختلف جوانب الإنسان، فتجعله ذلك الكائن الذي يعرف ذاته أولا ثم يكتشف الآخر ثانيا، وإذا ما نظرنا إلى هذه الوظائف نجدها متعددة ومتشعبة نظرا لتعدد أغراض وأهداف الكائن البشري فمنها ما هو تربوي وتعليمي ثم إداري، إجتماعي وأمني، تكويني وإيديولوجي، إرشادي وتوجيهي، ثقافي إشعاعي، تواصل اقتصادي، استثماري وخاصة في استثمار وتنمية الموارد البشرية، وهذا ما تصبو إلى تحقيقه وظيفة المدرسة الحديثة.

إن مفهوم التنمية البشرية هو مفهوم مركب من جملة من المعطيات والأوضاع والعوامل، والتنمية البشرية هي عملية أو عمليات تحدث نتيجة تفاعل مجموعة من العوامل والقواعد المتعددة والمتنوعة من أجل الوصول إلى تحقيق تأثيرات وتشكيلات معينة في حياة الفرد وفي سباقه المجتمعي، وهي حركة متصلة تتواصل عبر الأجيال وعبر المواقع الجغرافية والبيئية على هذا الكوكب.

التنمية البشرية تستدعي النظر إلى الإنسان كهدف في حد ذاته حين تتضمن كينونته والوفاء بحاجته في النمو والنضج والإعداد للحياة، إن الإنسان هو محرك الحياة في مجتمعه ومنظمها قائدها ومطورها ومجددها، إن الهدف من التنمية البشرية هي تنمية الإنسان في مجتمع ما بكل أبعاده الاقتصادية والسياسية وطبقاته الاجتماعية واتجاهاته الفكرية والعلمية والفنية والثقافية.

إن دور الفن في التنمية البشرية لا يقتصر على المجال الصناعي، يقول أفلاطون في كتاب الجمهورية عن علاقة الفن بالتنمية: "إن الفن إلى جانب إنتاجه لكل أنواع الأشياء الصناعية يستطيع أن يصور على النباتات والحيوانات ونفسه أيضا، والأراضي والسماء، والأجرام السماوية"²

إن مفهوم التنمية البشرية مركب يشمل مجموعة من المكونات والمضامين، تتداخل وتتفاعل في عملياته ونتائجه جملة من العوامل والسياقات المجتمعة وأهمها: عوامل الإنتاج، والسياسة الاقتصادية والمالية، مقومات التنظيم السياسي ومجالاته، علاقات التركيب المجتمعي بين مختلف شرائحه، مصادر السلطة والثروة ومعايير تملكها وتوزيعها، القيم الثقافية المرتبطة بالفكر الديني والاقتصادي والثقافي، والقيم الحافزة للعمل والإنماء والهوية والوعي بضرورة التطوير والتجديد للتقدم والتنمية.

وهكذا يمكن القول أن للتنمية البشرية بعدين: البعد الأول فهو أن التنمية البشرية عملية تتصل باستثمار الموارد والأنشطة الاقتصادية التي تولد الثروة والإنتاج لتنمية القدرات عن طريق الاهتمام بتطوير الهياكل والمنشآت والبنية التحتية التي تتيح المشاركة

والإنتفاع بمختلف القدرات لدى كل الأفراد، أما البعد الثاني، يهتم بمستوى نمو الفرد في مختلف مراحل الحياة لتنمية قدرات الإنسان وطاقاته البدنية العقلية، النفسية والمهارية والروحية.

إن وظيفة الفن في التربية الحديثة هي الإستثمار في الموارد البشرية وذلك بالعمل على تربية الفرد والعمل على خلق الفرد المبتكر وإطلاق العنان له للتعبير عن أفكاره ومشاعره وعواطفه، ولا تبنى الشخصية المبدعة المتكاملة إلا إذا ضمنا تعليم الفن للفرد، فإن كل إبداع في إنما هو نتاج فكري، وإن أي عمل فني راقى لا يمكن أن يرى النور إلا إذا مسته عصا العقل البشري، وخضع لتأمل ورؤية وإدارة وتصميم³

للفنون دور مهم في بناء شخصية الطفل، فهي تساهم مع باقي المواد الدراسية الأخرى في إعداد الطفل المتكامل الشخصية وتمنحه قدرة للإستجابة للجمال أينما وجد، فالفن يهذب النفس ويضمن نموا في الذوق والإحساس بالجمال إلى جانب اكتساب المهارات.

فالدارس للفن يتغير سلوكه وتتغير عاداته ويكون قادرا على إدراك المعاني والقيم الجمالية في الأشياء، والإنسان كلما تعمق في ممارسة الفن وزادت ثقافته، اتسعت بذلك دائرة إدراكه ورؤيته ونمت خبرته، ومعنى ذلك أنه تعلم شيئا جديدا، لأن ممارسة الفن للفرد هي الأساس في تنمية الذوق والإحساس بالجمال، وتنمية القيم السلوكية والأخلاقية، وهذه الإقتناعات تأتي من الإستجابات الجسمية والعقلية والعاطفية لما قد يمارس الفنان وما يحاول أن ينقله إلينا⁴

فالمدرسة الحديثة في رأي علماء النفس والتربية فضاء شاسع للإستثمار البشري، هي حياة إجتماعية نفسها مفعمة بالنشاط والحياة والعمل، زاخرة بالصناعات والمهن والأشغال اليدوية، متفاعلة بالأفكار والمبادئ، والمدرسة على هذا الأساس هي التي تستطيع أن تدرب كل طفل فيها على أن يكون عضوا بارزا في جماعة مدرسية صغيرة.

لقد اعترفت التربية الحديثة بعملية الإستثمار في العنصر البشري، وظهرت أفكار الإستثمار البشري التي تتمركز حول الطفل باعتبار أنه الأساس في عملية الإستثمار، وأن المادة الفنية ما هي إلا وسيلة لتنمية هذا الإستثمار، وتطورت عملية التدريس وتغيرت تبعاً لذلك.

فالمنهج التربوي الحديث الذي يعتمد على تدريس الفنون، يسعى إلى المعالجة الكلية لمكونات الطفل العقلية والنفسية والوجدانية والبدنية، آخذا بعين الإعتبار البيئة الطبيعية والإجتماعية والاقتصادية، فالطفل في منظور التربية الحديثة هو المحور الأساسي الذي تتركز حوله الإهتمامات التربوية، فهو كائن مفكر له أحاسيس ومشاعر يفكر ويتذكر ويتخيل ويبدع، فالإبداع هو أحد أهم الأهداف التربوية التي تسعى المجتمعات الإنسانية إلى تحقيقها، فالأفراد المبدعين يلعبون دورا هاما وفعالا في تنمية مجتمعاتهم في جميع المجالات الاقتصادية والإجتماعية والتقنية المختلفة⁵

فالفنون في المنظومة التربوية الحديثة تهدف إلى المعالجة الكلية لمكونات الطفل الأساسية العقلية والنفسية والوجدانية والبدنية والسلوكية آخذا بعين الاعتبار البيئة الطبيعية والاجتماعية، حيث يتبين لنا أن منهج النشاط لا يعدو أن يكون ثورة ضد مظاهر النشاط المحدودة التي يدور حولها محور المنهاج التقليدي مع الإهتمام بميول الطفل وجعلها كأساس لجميع المواقف التعليمية، زيادة تأكيد مظاهر النشاط الكبرى التي من شأنها أن تجر إلى دراسة موضوعات كثيرة كما وكيفاً.

إن عملية الإستثمار في العنصر البشري في المنهاج الحديث، هو محور الأساس الذي تركز حوله فلسفة التربية الحديثة، حيث يعطي للمواد الفنية المكانة اللائقة مما يجعلها تنمي حركة نمو الطفل العقلية والوجدانية والجسمية، وعمد المقرر النفسي الجديد على ربط الصلة المحورية بين المواد الدراسية كلها في المرحلة الواحدة من التعليم، لأن حاجة الطفل إلى توسيع مجالات إدراكه وخبراته، يتطلب أن توجهه مناهج المدرسة الحديثة إلى الإطلاع على أهم المصادر الأساسية التي تنمي معلوماته ومعارفه، ولأن المادة الفنية ما هي إلا وسيلة لتنمية وتطوير وتثمين رغبات الطفل وميوله وحاجاته وتعميق خبراته، كما أن الإتجاه التربوي الحديث يحث على إثارة غريزة التعاون عند الطفل وتنمية المهارات التي كانت تقصد كغاية في حد ذاتها، وكنهايات مطلقة أصبحت تأتي كوسيلة مرتبطة بعمليات الخلق والابتكار التي يزاوئها الطفل في أثناء علاجه لمختلف الخامات، فالمدرسة بالنسبة للطفل تمثل البيئة المقصودة التي عن طريقها تكون عاداته وإتجاهاته ومهاراته ومعايير الأخلاقية والفنية ونظرة للحياة، وتساعده في ترتيب الفكر وتقوية الملاحظة وتهديب الخيال، وترقية الوجدان وتقوية الإدارة⁶

يعتمد المدرس في المدرسة الحديثة إلى إيصال الطفل إلى الحصول على تكوين عقلية جمالية متبصرة وناقدة، وإثارة شتى الدوافع والخبرات لدى الطفل، وتعلم الفرد أن خياله عمل شرعي وأنه قابل للنماء وأنه جوهر البناء، ثم كيف يرى وما هي فلسفة التأمل الجمالي وكيف يمارسه، ثم كيف يمارس حقه في نقل أعماله الفنية والجمالية وكيف يتخيل الأفضل، هذا مما جعل المدرسة الحديثة تعني اليوم بالجانب الجمالي، وبترقية الذوق الفني الذي يعتمد على الطبيعة وعناصرها والبيئة ومحيطها، لأنها تشكل مجتمعة العنصر الأساسي لمصدر الإلهام والشعور بموطن الجمال، يقول هبغل: "لا يبدو الجمال في الطبيعة إلا انعكاسا للجمال في الذهن"⁷

كما تعلم المدرسة الطفل كيفية الإصغاء إلى الموسيقى وإلى تنوع الصوت، بل كيف يلائم بين الخبرتين السمعية والبصرية، وتعلمه كيف يرسم الأشكال الهندسية والزخرفية، كما تساعده على تكوين مخزون بصري كثيف وراقي، هذه الدروس الفنية مهمتها أن تفتح أمام أعين الطفل ووعيه ألف باب ونافذة، وهي تعرض ولا تفرض، وتوجه الإلتفاف إلى تلك القدرة المدهشة عند الطفل، وهو فنان هاو قادر على صياغة أعمال وتشكيلات فنية عالية القيمة جمالياً وذهنياً، ليس هذا فحسب، بل أن أفكار وآراء الطفل قادرة على التشبع بأساليب تقنية صعبة، وفي حصاد منهاج التكوين الفني نحصل على عشرات الأعمال الفنية التي تستطيع مواجهة الظروف المحيطة لسنوات طويلة، وقد يدفع هذا إلى جعل المدرسة قلعة أو متحفاً جمالياً، وبهذا تتحول المدرسة إلى بيئة جمالية يشارك الأطفال فعلياً في صياغتها.

ويمكننا القول أن الفن قد يصير مستقبلا واحدة من وظائف الأطفال في حضارة قادمة يتفرغ فيها جهد الفنانين الكبار إلى عمليات التصميم والبناء، أو الوظائف الأكثر حداثة والأشد تعقيدا في عالم يقارب الموجة الثالثة أو مرحلة ما بعد الصناعة.

الهوامش والإحالات:

1. جيزلاكونيكا: خدمة الجماعة في المؤسسات، ترجمة محمد أمين سلوم، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1963، ص:70.
2. ستولنتر جيروم: النقد الفني، ترجمة زكرياء، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت، لبنان، ص:168.
3. د. علي عبد المعطي محمد: جماليات الفن والمنهاج والمذاهب والنظريات، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، جمهورية مصر، 1994، ص:82.
4. بارنارد مايرز: الفنون التشكيلية وكيف نتذوقها، ترجمة د. سعد المنصوري، مسعد القاضي، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، مصر، دون طبعة، 1966، ص:12.
5. د. محمد عبد الحليم منسي: التعليم الأساسي وإبداع التلاميذ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، مصر، 1993، ص:25.
6. محمد عطية الأبراشي: الاتجاهات الحديثة في التربية، دار إحياء الكتب العربية القاهرة، مصر، الطبعة السابعة، 1966، ص:270.
7. دني هومنان: علم الجمال، ظافر الحسن، منشورات عويدات-بيروت-باريس، الطبعة الرابعة، 1983، ص:197.